Edited with the trial version of
Foxit Advanced PDF Editor
To remove this notice, visit:
www.foxitsoftware.com/shopping

فن الترجمة في كتاب "أنموذج الزمان في شعراء القيروان"

لابن رشيق المسيلي .قراءة في المنهج والخصائص.

أ. شينة نصيرة.

باحثة دكتوراه . جامعة باتنة

Résumé:

Le paye du Maghreb Islamique est riche en personnalités célébres qui l'ont honoré tout au long de son histoire ; dés son adoption l'Islam le Maghreb a connu des gênés dans divers domaines d'intellect, ainsi que la littérature, parmi des personnalités qui se son apparues au Ve siècle AH (Hijri), c'est El Hassane Ibn Rachik El M'ssili, auteur, poète et critique connu par son activités littéraire et critique a cet époque, laissant de nombreuses œuvres dans divers domaine de la littérature, parmi celles-ci : l'art de biographie dont nous allons consacré cette étude, entamons l'une de ses œuvres intitulé : Ounmoudhaj Ezzamane Fi Chouàraa El Kairaouàne » (model de temps au poètes de Kairouan) et nous essaierons de déterminer les caractéristiques de la biographie du livre d'Ibn Rachik ainsi que son style qui le distinguait des autres écrivains.

الملخص:

تزخر بلاد المغرب الإسلامي برجال أفذاذ شرفوها بإنجازاتهم عبر تاريخها الحافل، فمنذ أن فتحت صدرها لرسالة الإسلام نبغ فيها أعلام في شتى مجالات الفكر والأدب، أسهموا بجهودهم المعتبرة في مسيرة الحضارة الإنسانية، ورغم أن حظ كثير منهم كان الإهمال والنسيان وضياع الكثير من أمجادهم، إلا أن بعض تلك الجهود استطاع تحدى عامل الزمن، ومازالت شمسه تسطع على أهل المغرب والمشرق على السواء. ومن بين الأعلام الذين أنجبتهم هذه الأرض المعطاء في القرن الخامس الهجري، الحسن بن رشيق المسيلي* صاحب كتاب "العمدة"، مؤلف وشاعر وناقد برز بنشاطه الأدبي والنقدي في تلك المرحلة، وخلف مؤلفات عديدة شملت مجالات الأدب المختلفة بما فيها فن التراجم، وسنخص بالدراسة أثرا من جنس التراجم الأدبية لهذا الأديب المبدع وهو كتابه "أنموذج الزمان في شعراء القيروان"، وسنحاول تحديد خصائص الترجمة في الكتاب مع إبراز ما يميز منهج ابن رشيق فيها عن غيره من كتاب فن السيرة.

Edited with the trial version of
Foxit Advanced PDF Editor
To remove this notice, visit:
www.foxitsoftware.com/shopping

1- تمهيد:

يعتبر كتاب الأنموذج من أبرز وأشمل ما ألف الكتّاب في تراجم أدباء إفريقية، وقد ترجم فيه ابن رشيق لمائة شاعر وشاعرة من عصره، إذ تغطي تراجمهم الإطار الزماني الممتد من سنة 366هـ إلى غاية سنة 460هـ، وهو كتاب يجمع بين ثلاثة أنواع من التراجم وهي: التراجم الخاصة بالشعراء، التراجم البلدانية، والتراجم حسب العصور.

وقد ترجم فيه المؤلف لأدباء تتوفر فيهم ثلاث صفات: وهي أن يكونوا شعراء، ومن أهل القيروان أو وافدين عليها، وأن يكونوا معاصرين للمؤلف. واسم الكتاب ينبئ عن محتواه؛ فلفظة "الزمان" تعني أن ابن رشيق خصص كتابه للشعراء والأدباء المعاصرين لعهده[1]، وتشمل كلمة "معاصر" من أدركهم ابن رشيق كشيوخه، أو من جمعته بهم حرفة الأدب أو توافق السن، أو بلاط المعز لدين الله الفاطمي، الذي كان يعج بالأدباء والشعراء، إذ كان هذا الأمير لا يدخر وسعا في تجميل بلاطه بأوفر عدد من رجال الأدب والنقد والشعر المتميزين، بحيث كلما سمع بعالم أو شاعر طار صيته، استدعاه لقصره وأغدق عليه ألوانا من الحظوة والتشجيع.

ويجدر بنا أن ننبه إلى ضياع مقدمة كتاب الأنموذج، بل إن أغلب الكتاب في حد ذاته غير موجود، وكل ما وصلنا منه هو نقول كثيرة تدل على أنه كان موجودا إلى بداية القرن السادس الهجري، فابن ظافر المتوفى سنة 623 هـ ينقل عنه في مواضع كثيرة من كتابه "بدائع البدائهْ"، وكذلك ابن فضل الله العمري في كتابه "مسالك الأبصار"[2]، إن كتاب الأنموذج – بما حواه من تراجم، الكثير منها لم يعرف إلا منه[3]، ومادة أدبية قيمة في الأخبار والشعر والنقد، وبوصفه من الكتب النادرة التي احتوت على تاريخ الأدب وأعلامه في المغرب– كانت له شهرة ورواج وذكر كثير في كتب التراجم وكتب مؤلفي الأدب القدماء؛ حيث اقتبس منه العديد منهم، وأشاروا إليه خاصة في القرنين السابع والثامن الهجريين، كابن بسام وابن خلكان وياقوت الحموي.

هذه الحظوة التي أحيط بها كتاب الأنموذج، إنما تنبع من محتواه الذي يتمثل في التراجم بالدرجة الأولى، بوصفه مصنفا أساسا للتعريف بشعراء القيروان المعاصرين لابن رشيق، وسجلا حافظا لإبداعاتهم الشعرية بالدرجة الثانية، ناهيك عن الآراء النقدية للمؤلف والتي حفل بها هذا المصدر، ولعل محاولة الكشف عن أهم ما يميز طريقة أو منهج ابن رشيق في ترجمته للشعراء في مؤلفه هذا، ستكشف لنا سر هذه الأهمية والقيمة التي يتمتع بها هذا الكتاب.

2- منهج ابن رشيق في تراجم الأنموذج:

Edited with the trial version of Foxit Advanced PDF Editor
To remove this notice, visit: www.foxitsoftware.com/shopping

المنهج هو الطريق الذي يسلكه الكاتب إلى الغرض الذي يهدف إليه من وراء تأليف الكتاب، وهو مرآة أمينة تعكس ثقافة المؤلف وقدرته على التخطيط، ومقدار تمكنه من الضبط وحسن التصرف فيما يورده أو يهمله من حقائق[4].

وقد جرت عادة الكتاب العرب منذ القديم أن يذكروا في المقدمات التي يستفتحون بها كتبهم الأسباب التي ألفوا من أجلها تلك المصنفات، إلا أن ضياع مقدمة كتاب الأنموذج، حال دون معرفتنا للأسباب التي دفعت الكاتب لتأليفه، إلا أن الأرجح أن من أهم هذه الدوافع هو رغبة الكاتب في تدارك النقص الملحوظ في كتب طبقات شعراء إفريقية مقارنة بالمشرق، خاصة أن المغاربة كانوا يحذون حذو المشارقة في كثير من الميادين جاعلين منهم القدوة والنموذج الأمثل للاحتذاء[5]. ولتحقيق هذا الغرض اتبع ابن رشيق في أنموذجه طريقة خاصة في الترجمة للشعراء، تظهر معالمها من خلال النقاط التالية:

أولا– في جمع المادة:

اعتمد ابن رشيق في جمع مادة كتابه من أخبار أو أشعار على المحفوظ لديه وعلى المخالطة والمراسلة[6]؛ فمن المحفوظ لديه –وهو كثير– قوله في ترجمة معد بن خيارة الفارسي:« وشعر معد مشهور مأثور وقد أتيت منه بما حوته روايتي وانتهت إليه درايتي»[7]. ومن أمثله المخالطة وهي عديدة وكثيرة بحكم أن الحسن كان من شعراء البلاط، ومن سكان القيروان التي قضى فيها أغلب سنوات عمره، قوله في ترجمته لعبد الواحد بن فتوح الوراق:« ضمني وإياه مجلس مذاكرة ومعه غلام من ولد عبد الله...»[8]، وفي ترجمة عيسى بن إبراهيم القطان:« كنت أسمع بذكره وهو بسوسة إلى أن اجتمعت به فأنشدني بعض شعره، ثم قال كيف رضاك عما سمعت؟ فقلت: أحسن رضا وأتمه، فتكلم بكلام جميل ولم أره بعد ذلك الاجتماع»[9]، أما عن المراسلة، فيخبرنا ابن رشيق أن عبد الرزاق بن علي النحوي كتب إليه لما صنع هذا الكتاب قصيدة أنفذها إليه ليثبتها فيه، يقول في مطلعها:

يَا مُبْرِزا إبْرِيزَ خَيْرِ سَبيكَةٍ وَمُكَلِّلا إكْلِيلَ خَيْرِ مُتَوَّجِ[10]

وهذا النص يؤكد لنا مدى اهتمام شعراء العصر بكتاب الأنموذج وحرصهم على إثبات أسمائهم وأشعارهم فيه، كما يدل على شعور المغاربة بضرورة العناية بإنتاجهم الفكري والأدبي الذي يميزهم عن أهل المشرق[11].

إن المتصفح لمادة هذا الكتاب يلاحظ أن ابن رشيق لم يعتمد في جمعها على كتب ومؤلفات غيره إطلاقا، فهو لم يذكر اسم أي كتاب يكون قد استفاد منه أو أخذ عنه خبرا أو معلومة أو حكاية معينة، خاصة إذا أخذنا بعين الاعتبار الأمانة العلمية التي كان يتصف بها، والتي تظهر بجلاء

Edited with the trial version of Foxit Advanced PDF Editor
To remove this notice, visit: www.foxitsoftware.com/shopping

في كتاب العمدة، كما جرت عادة المؤلف في هذا الكتاب (الأنموذج) أن ينسب كل قول أو خبر أو حادثة لصاحبها فيقول: "أخبرني فلان..."، "حكى لي فلان..."، ناهيك على أنه غالبا ما يكون طرفا في تلك الواقعة، باعتبار مخالطته ومعايشته لأغلب شعراء الأنموذج، مما يجعله شاهد عيان على الحياة الفكرية في تلك الفترة بتصويره لما كان يدور بين الشعراء والأدباء من مساجلات ومحاورات ودعابة وغيرها، كل ذلك يدفعنا للقول بأن هذا الكتاب هو مصدر حقيقي اعتمد فيه ابن رشيق على مادة خام استخلصها مما كان محفوظا لديه وما روي له، وعلى الأرجح أنه لم يسبقه أحد إلى إدراج هذه المادة في كتاب، وقد أعاد ابن رشيق صياغة تلك الأخبار بأسلوبه الخاص مسترجعا إلى جانب ذلك ذكرياته مع أقرانه وأنداده ومعاصريه، ليخرج لنا درة نفسية تضاف إلى لآلئ عقد تراثنا المغربي الفريد.

ثانيا- في ترتيب المترْجَمين:

مما لاشك فيه أن ابن رشيق قد اعتمد طريقة معينة في ترتيب الأعلام الذين ترجم لهم في الأنموذج، إلا أن ضياع هذا الكتاب يحول دون معرفتنا أو تحديدنا لهذه الطريقة أو المبدأ، فهو على صورته الحالية ليس من ترتيب ابن رشيق بل من ترتيب محققي الكتاب، وقد رتباه ترتيبا ألفبائيا، انطلاق من أسماء الأعلام(12).

وما دمنا لا نعلم بالضبط الطريقة التي رتب بها المؤلف مترجميه فإننا بحاجة إلى شيء من التقصي والتحري، وسنستبعد أولا طريقة الترتيب حسب الوفيات لأن الكتاب يشمل الأحياء والأموات معا(13)، ولنتأمل قول ابن رشيق في ترجمة أبي إسحاق الحصري:« وقد كان أخذ في عمل "طبقات الشعراء" على رتب الأسنان وكنت أصغر القوم سنا، فصنعت:

رِفْقـا أبـا إسْحَـاقَ بالعَالَـمْ حَصَّلْتَ فِي أَضْيَقِ مِنْ خَاتَمْ
لَوْ كَانَ فَضْلُ السَّبْقِ مَنْدُوحَةً فُضِّـلَ إِبْلِيـسُ عَلـى آدَمْ

فلما بلغه البيتان أمسك عنه، واعتذر منه، ومات وقد سد عليه باب الفكرة فيه ولم يصنع شيئا»(14)، هذه الحكاية تحز في نفوسنا من جهة؛ لأن ابن رشيق -رحمه الله- كان السبب في عدول الحصري عن تأليف كتابه الذي كان عازما على تصنيفه في تراجم شعراء على الأرجح أنهم من المغرب، فسدّ عليه بذلك الطريق في إخراج مؤلف قيم كان سيكون شبيها بالأنموذج، وتوحي من جهة أخرى بأن هذه الحادثة قد تدخل ضمن الأسباب -إن لم تكن السبب الرئيسي- التي دفعت ابن رشيق إلى تأليف الأنموذج، تعبيرا عن محاولته في التكفير عن الموقف المذكور(15)، ونستنتج من كل ذلك أن ابن رشيق كان مسبوقا في فكرة تأليف طبقات الشعراء بالحصري، وإن موقف ابن

Edited with the trial version of Foxit Advanced PDF Editor
To remove this notice, visit: www.foxitsoftware.com/shopping

رشيق من أسلوب ترتيب الشعراء في كتاب الحصري يؤكد لنا أنه من المستبعد جدا أن يكون قد صنف شعراء أنموذجه حسب الأعمارْ.

ولنتأمل ما جاء في الترجمة التي خصصها الكاتب لابن الإسفنجي:« مشهور بعمل الشعر متوسط الطبقة»[16]، وما أورده في ترجمته لعلي بن يوسف التونسي:« وكان علي يستضعف شعراء عصره ويهتدم أبياتهم وربما اصطرفها جملة واحدة، ولا يرى ذلك عيبا بل يقول: أنا فرزدق هذه الطبقة»[17]، وفي ترجمته لعلي بن عبد الكريم بن غالب:« وأنا أقتصر من كلامه على ما جانس الوقت وناسب الطبقة»[18]. وإذا وضعنا في الاعتبار أن ابن رشيق في كتاب العمدة يترجم للأدباء حسب الطبقات، فطبقة الجاهليين يترأسها أمرؤ القيس، وطبقة المولدين يترأسها أبو نواس[19]، ويعطي لكل شاعر رتبته[20]، وهو في نقده يحاول أن يصنف وفق الجودة لا وفق القديم والجديد[21] ولا وفق السن، كل ذلك يقودنا للقول بأن ابن رشيق إنما يترجم في الأنموذج وفق طبقات تتحكم فيها الجودة وحدها ولا شيء آخر.

لقد ضاق ابن رشيق ذرعا من اعتماد المقياس الزمني وحدة لتصنيف الشعراء، خاصة أنه مقياس جامد وجاف لا يتناسب وميدان الشعر المتميز بخصوبته وعاطفيته وجمالياته، كما نفر أيضا على الأرجح من الترتيب الألفبائي، نظرا لما عرف عنه من حس نقدي مرهف يدفعه دوما للتمحيص والتقييم والتصنيف، ويأبى عليه تقديم شاعر على آخر فقط لأن أول حرف من اسم المقدم أسبق في الترتيب الهجائي من الحرف الأول من اسم المؤخر، وهو أمر لا يستبعد من ابن رشيق بل هو خليق به كناقد حصيف، فارتأى اعتماد مقياس قيمي ينظر للشاعر من زاوية إبداعه وإجادته لا غير.

ثالثا – في التعريف بالشاعر:

أ – عناصر الترجمة:

بما أن تراجم الشعراء هي التي يخبرنا فيها المؤلف عن الشعراء وأزمانهم وأقدارهم وأحوالهم في أشعارهم وقبائلهم وأسماء آبائهم ومن كان يعرف باللقب أو الكنية منهم، ويذكرون فيها ما يستحسن من أخبار الشاعر وما يستجاد من شعره[22]، فإن كل التراجم قد تشترك في عناصر معينة كأركان أساسية لأية ترجمة، كذكر الاسم والنسب وتاريخ الوفاة مثلا، لكن قد تشذ بعضها عن واحدة أو أكثر من تلك الأركان وقد تنفرد بخصوصية معينة تميزها عن بقية التراجم، وتراجم ابن رشيق في الأنموذج بالنظر إلى الهيكل التنظيمي لها تدخل في هذا نطاق هذه الأخيرة، وهذا ما سنحاول معرفته من خلال تحديدنا للوحدات المكونة لها.

1 – ذكر الاسم:

Edited with the trial version of Foxit Advanced PDF Editor
To remove this notice, visit: www.foxitsoftware.com/shopping

أول ما يبدأ به ابن رشيق في تراجمه هو ذكر اسم الشاعر كاملا دون إطالة في شجرة النسب، ويقرنه أحيانا بكنية المترجم له، ويحرص دائما على ذكر الألقاب التي اشتهر بها بعض الشعراء حتى غطت على أسمائهم، كقوله عندما ترجم للدركادو:«عبد الملك بن محمد التميمي المعروف بالدركادو، والدركادو لقب عرف به»[23]، وفي ترجمته لخدوج الرصفية:« لقبت بهذا اللقب (خدوج) واسمها خديجة بنت أحمد بن كلثوم المعافري».[24]

كما يشرح أحيانا سبب تلقيب الشعراء بتلك الألقاب؛ فعمر بن معمر الفارسي لقب بـ"القلم"، لأنه كان يملك خطا حسنا، وكان ولوعا بذكر القلم[25]، وحسين التميمي التونسي لقب بـ"عنترة" لسواده.[26] إن الاهتمام بألقاب الشعراء هو في حد ذاته نقطة إيجابية تخدم الترجمة، لأن بعض الأدباء اشتهروا بألقاب قد تكون بعيدة عن أسمائهم الحقيقية، وفي ذلك يقول علي بن محمد: «بعض الأدباء قد اشتهروا بألقاب ليست هي الأسماء الحقيقية لهم، ولكنها بلغت من الشهرة حدا تضاءل أمامه الاسم الحقيقي، بل كاد أن لا يذكر أبدا والأمثلة كثيرة على ذلك، فهي لا تكاد تحصى في أعلام الأدب العربي، في المغرب والمشرق، فهناك من الناس من يسمون أحمد بن الحسين، ومنهم عدد كبير من الشعراء، ولو تحدث أحد عن الشاعر أحمد بن الحسين، لظن أغلب الناس أن هذا الاسم لشاعر مغمور، نكرة، يعرفه المتخصصون في دراسة الفترة الزمنية التي نشأ فيها. أما إذا قيل الشاعر المتنبي، فإن الذهن عندئذ ينصرف مباشرة إلى ذلك الرجل الذي ملأ الدنيا وشغل الناس...».[27]

كما اهتم المؤلف أيضا بضبط أسماء بعض الشعراء الصعبة النطق أو الغريبة، كقوله: « عبد الرحمن بن محمد الفراسي بالفاء وبعد الراء ألف وسين مهملة».[28] مما ينم عن دقته وحرصه على ضبط الأسماء ونطقها بشكل صحيح، لأن الترجمة في جوهرها الأساسي تسعى لكشف الغموض عن المترجم له بما في ذلك اسمه.

2- ذكر أصل الشاعر وبلده:

من الملاحظ أن ابن رشيق كان صاحب رسالة عامة، إسلامي التوجه، إذ كان لا يفرق بين ما يسمى بالمشرقية والمغربية، ولذلك كان كتابه "العمدة" مشرقيا في كل شيء، أعاد فيه ابن رشيق كتابة تراجم شعراء مشارقة بطريقة الرواية (سمعت، حدثني، أخبرني، قرأت...)[29]، لكن يبدو أن الرجل في الأنموذج قد نضج فكريا، فجاءت سير هذا الكتاب كلها مغربية، حيث خصصها لشعراء عاشوا كلهم في القيروان، لكنهم ليسوا جميعا أصيلي هذه الحاضرة، فبعضهم كان من الطارئين عليها من مختلف أصقاع المغرب الإسلامي، باعتبارها مركزا للإشعاع العلمي والأدبي، وعاصمة سياسية للدول الصنهاجية، وقليل منهم وفدوا عليها .

Edited with the trial version of Foxit Advanced PDF Editor
To remove this notice, visit: www.foxitsoftware.com/shopping

وكثيرا ما يثبت ابن رشيق الصلة المكانية للشاعر، فيؤكد على أصالته بالقيروان إن كان من أهلها[30]، أو يذكر بلدته الأصلية إن لم يكن كذلك[31]، وقليلا ما يشير إلى سبب وفوده على هذه الحاضرة إما لطلب العلم أو طلبا للحظوة أو خدمة البلاط أو زيارة لقضية ما... من هذا القبيل قوله في ترجمة عبد الله بن محمد الجراوي: «تأدب بجراوة داخل المغرب، قدم إلى الحضرة سنة سبع وأربعمائة متعلقا بالخدمة»[32]، وكلما تحدث عن أصل الشاعر فإنه يشير إلى نشأته ومكان تأدبه، كقوله:« عمران بن سليمان الدارمي المسيلي، نشأ بالمسيلة وتأدب بالمنصورية»[33]، كما أنه يعنى بتحديد أماكن المدن التي ينحدر الشعراء منها خاصة غير المعروفة منها، كقوله في ترجمة عبد الله بن الحسين الصدفي: « من قرية صدف على خمسة فراسخ من مدينة القيروان»[34]، وعن محمد بن ربيع: «من قرية يشونش بساحل البحر من كور رُصْفة».[35]

3- ذكر أحكام نقدية تخص أهم مميزات المترجم له كشاعر وما يتفرد به:

وهي فقرة أساسية يقدم بها ابن رشيق الشعراء، في شكل أحكام نقدية تخص غالبا الناحية الأدبية في شخصية الشاعر، فيقول في علي بن عبد الكريم بن غالب مثلا:« شاعر مذكور، كثير الافتنان، ريّان الفنن، واسع العطن في أنواع علوم الدين والدنيا، قدير على التطويل وركوب القوافي الصعبة العويصة، سريع الصنعة يذهب في الشعر كل مذهب، وينحو في الرجز نحوا عجيبا، ويتعرب كثيرا»[36]، وفي علي بن حبيب التنوخي:« شاعر عذب اللفظ، لطيف المعنى، سهل الطريقة، قليل التكلف ظاهرة الرقة».[37]

ولا عجب أن يترجم ابن رشيق لشعرائه من خلال الموضوعات الشعرية، وأن يبني تلك التراجم على أحكام نقدية؛ فالكتاب مخصص للشعراء دون غيرهم، ومؤلفه هو ناقد حصيف ضليع في دراسة الشعر وتمحيصه، وهو قبل كل ذلك شاعر مجوّد، إضافة إلى أن العديد من الباحثين يؤكدون على أن الأنموذج هو مجال تطبيق لما أقره ابن رشيق من قواعد ونظريات في العمدة، كما أن الهدف الحقيقي والأساسي من الترجمة الأدبية، هو التعريف بالنشاط الأدبي للمترجم له، وعرض نماذجه شعرا ونثرا، وأكثر المؤلفين في هذا النوع من التراجم لا يتعرضون لذكر أحوال المترجم له مفصلة كما هو الحال في أصناف التراجم الأخرى، وكأن هدفهم في بناء الترجمة هو التعرف على الرجل في إنتاجه الأدبي.[38] فابن رشيق يهتم بالتقويم العام للمستوى الأدبي عند مترجميه وذلك تمهيدا لعرض مواده الأدبية.

إننا عندما نتصفح موجز التراجم الواردة في هذا الكتاب، نحس بأن الكاتب قد استل فيها قضايا معينة، واستقصى معالم محددة دون غيرها في حياة الأديب أو الشاعر، دون أن يقرنها بالحوادث والتاريخ، ولعل هذا هو ما بيّنه عباس محمود العقاد (1889-1964م) في العصر الحديث في

Edited with the trial version of Foxit Advanced PDF Editor
To remove this notice, visit: www.foxitsoftware.com/shopping

إحدى مقدماته لسلسلته المشهورة "العبقريات" حينما قال: «علم قراء هذه التراجم وجهتنا التي نتجه إليها في كتابتها، ولا نحسب أن أحدا ممن تتبعوها –أو تتبعوا معظمها– ينتظر منها بحثا غير بحوثها التي عنيناها، فليس يعنينا منها سرد الحوادث ولا استقصاء البيان عن فترة من السنين، وإنما يعنينا من الحادثة التي نعرض لها ومن الفترة التي نستبينها أنها وسيلة إلى مقصد واحد: وهو التعريف بالنفس الإنسانية في حالة من أحوال العظمة والعبقرية، أو حالة من أحوال النبل والأريحية، فإن جاوزنا هذا المقصد إلى غيره فإنما نجاوزه جلاء فكرة تحيط بأطوار التاريخ الإنساني وتخرجه من غمار التيه والظلمة...».[39] وهذا المقياس النقدي في السير والتراجم أي دراسة حياة الأشخاص وفق منهج نفسي، هو مقياس حديث، يهتم بظاهرة معينة يتفرد بها المترجم له، فيحاول الكاتب إبرازها، وبيان عوامل نشأتها ونبوغ صاحبها فيها وأهم مميزاتها.

وفي الحقيقة إن العقاد ليس وحده في إيمانه بفكرة النبوغ والتفرد، بل يشاركه في ذلك جماعة الديوان كلهم: عبد الرحمن شكري، وإبراهيم عبد القادر المازني الذي يسميها القوة الدافعة، فهم جميعا يتفقون على وجود طبقة خاصة من الناس، طبقة ممتازة بالجرأة أو الأمل أو الإدارة أو العقل، وهي موجودة في الأدب والفن والعلم والسياسة والوطنية والاجتماع.[40]

ويبدو أن هذه الطريقة في الترجمة، والتي تعتمد على مبدأ التفرد والتميز، لها جذور قديمة تعود إلى القرن الخامس الهجري، وإلى ابن رشيق بالتحديد، حيث انتهج منهجا نفسيا فكريا في تراجمه الواردة في الأنموذج، إذ كان يذكر أهم مميزات الشاعر ومواطن تفرده، ولا يحفل كثيرا بتفاصيل حياته الأخرى، وكأني به يدرس الشاعر من ناحية واحدة هي الناحية التي برز ونبغ واشتهر فيها، ولا يتعرض إلى ما هو عادي أو عرضي، ولعل هذا ما يرمي إليه عبد الرحمن ياغي من قوله عن ابن رشيق:« وهو دقيق التعبير حين يتعرض لوصف الشاعر فلا يصف كل واحد منهم بما وصف غيره...يلبسه حلته التي لا تنسجم إلا عليه».[41]

فالعقاد وابن رشيق بنيا تراجمهما على ما يسمى "بالتفرد"، أو "الامتياز الخاص"[42]، ونبوغ الفرد وبروزه في مجال معين، حيث يعتمد الكاتب إلى التركيز على مواضع الغرابة والنبوغ في شخصية المترجم له، التي تميز بها عن غيره، وخالف بها المألوف العادي، واستحق أن يستوقف عندها من يدرس حياته. ذلك أن« العرف المألوف لا يستفز القدوة ولا ينصف العظمة ولا يبعث الشوق إلى المعرفة، فإبراز جوانب الغرابة والتنويه بها هو الأساس في تراجم الأفذاذ، الذين ما كانوا أفذاذا إلا لأنهم غرباء يختلفون عن سواد الناس».[43]

والنبوغ ملكة مبتكرة في الإنسان، وهي تفوّق معجز وثمرة الموهبة والتقنية الفنية المبدعة، التي تهب للإنسان تفردا يعجز عن مجاراته فيه الآخرون[44]، ومثلها في ذلك العبقرية التي هي موهبة

Edited with the trial version of
Foxit Advanced PDF Editor
To remove this notice, visit:
www.foxitsoftware.com/shopping

فطرية من مواهب الإنسان لا يمكن أن تكتسب بالجهد والكد، وما العمل والنشاط بالنسبة للعبقري إلا وسيلة ضرورية لترعرع هذه العبقرية.[45] وتعريف النبوغ في "علم السيكوفسيولوجيا" هو تميز المخلوق بتأدية أعمال مألوفة على وجه من الإتقان يصعب على كثير ممن يقومون بهذه الأعمال عادة، أي أنه استعداد فطري تنميه المثابرة على العمل حتى يبلغ حظه من الكمال، وهو أيضا ابتداع المرء ما يكون غيره قد غفل عنه، أو اتباعه ما جرى عليه غيره ولكن على وجه ذاتي يكون له فيه صفة الابتداع.[46]

فالعقاد –وقبله ابن رشيق– يؤمنان بفكرة التفرد والبروز أي بظاهرة النوابغ، وهي ظاهرة جديدة لم يكتشفها علم النفس إلا في العصر الحديث، فبنى الأول على غرارها تراجمه، إذ نجده يترجم لبلال بن رباح من خلال تميزه بالآذان، فدرس حياته من الناحية الصوتية، وسماه "داعي السماء"، وترجم للفاروق عمر بن الخطاب من ناحية عدله وشخصيته المتميزة التي تجمع بين العظمة والبأس والقوة من جهة والعطف والدعة والرحمة من جهة أخرى، والتي قد لا يجود الزمان بمثلها أبدا، وخالد بن الوليد نبغ في فنون الحرب وفي وضع الخطط والتحكم في زمام الجيوش وتسيير أمورها، بحنكة وحزم وحكمة منقطعة النظير، فترجم له من الناحية العسكرية.

والثاني وضع تراجمه أيضا بتتبع ما برز فيه المترجم له أو نبغ فيه، وهو الذي سبق العقاد والعصر الحديث بما يقارب العشرة قرون، وقد يخولنا هذا أن نقول بأن ابن رشيق المسيلي قد يكون أول من حاول الترجمة للأعلام وفق مبدأ التفرد في كتابه المتفرد أيضا " أنموذج الزمان"، فلطالما كرر في تراجمه عبارات تدل على بروز المترجم له في مزية ما وبراعته فيها، كقوله في ترجمة أبي إسماعيل الكاتب:«...منفردا بعلم المساحات والأشكال»[47]، وعن الرقيق النديم يقول:« غلب عليه اسم الكتابة وعلم التاريخ وتأليف الأخبار وهو بذلك أحذق الناس»[48]، وعن ابن سوس:« انفرد في مغربنا بالقلم الرياسي الخافي انفرادا كليا لا يدانى فيه ولا ينازع، وله من سرعة الحفظ ما ليس لأحد»[49]، وغيرها من الألفاظ والتعابير التي تنم على الاقتدار والتفوق لدى المترجم له في مزية أو أكثر.

وهو أحيانا لا يذكر هذا النوع من العبارات، لكننا نستطيع فهم فكرة التميز من خلال السياق، وإن لم يصرح بها المؤلف، ففي ترجته للحصري يقول:« نشأ على الوراقة والنسخ لجودة خطه، وكان منزله لزيق جامع مدينة القيروان، فكان الجامع بيته وخزانته، وفيه اجتماع الناس إليه ومعه، ونظر في النحو والعروض ولزمه شبان القيروان، وأخذ في تأليف الأخبار وصنعة الأشعار مما يقرب في قلوبهم، فرأس عندهم وشرف لديهم ووصلت تأليفاته صقلية وغيرها وانثالت الصلات عليه... وكان شاعرا نقَّادا، عالما بتنزيل الكلام، وتفصيل النظام، يحب المجانسة والمطابقة،

Edited with the trial version of Foxit Advanced PDF Editor
To remove this notice, visit: www.foxitsoftware.com/shopping

ويرغب في الاستعارة تشبها بأبي تمام في أشعاره، وتتبعا لآثاره، وعنده من الطبع ما لو أرسله على سجيته لجرى جري الماء ورق رقة الهواء».[50]

من خلال تحليلنا لهذا النص نجد أن المؤلف قد أرّخ لحياة الحصري، بدراسة وتتبع النقطة التي تفرد بها ألا وهي الصناعة، حيث أن أول شيء برز فيه هذا الشاعر هو الخط، والخط صناعة، ونتيجة لأنه خطاط كان يكتب دائما، مما جعله مؤلفا وصاحب أخبار، ومادام الخط عنده صناعة فالشعر صناعة كذلك، فهو يحب المجانسة والمطابقة والاستعارة، وميله الشديد للصناعة أهَّله لأن يكون نقَّادا، هكذا بصيغة المبالغة دلالة على تمكنه وتبحره في مجال النقد، ولأنه إنسان ناقد وعقلي فهو عالم بالتنزيل، ولأنه فنان فهو يحب المحسنات ولا يغفل الخيال. وكخلاصة لذلك فهو في المغرب بمثابة أبي تمام في المشرق، أي صاحب مدرسة الصنعة.

إذن فقد ترجم له من هذه الناحية، وحتى النماذج الشعرية التي أوردها له تخدم كلها هذه الوجهة بالذات، أي الدلالة على التفرد، إذ نلاحظ أن كل الأبيات والمقطوعات التي ذكرها له ابن رشيق وجدانية، تندرج خاصة في غرض الغزل والرثاء، مهملا بذلك كل الأغراض الأخرى التي تخرج عن نطاق الوجدانيات.[51]

فلعل تركيز الكاتب على الناحية الوجدانية في شعر الحصري، قد جاء تدعيما وإبرازا لفكرة النبوغ ذاتها أي أن الشعر الوجداني من أهم وأروع أشعار الحصري، وفق مقياس الناقد، والتجاء الشاعر للجماليات والزركشة وكونه فنانا أدى إلى تكون الروح الوجدانية في نفسه، ذلك أن الشعر ترجمان النفس و« الشعر من الشاعر هو إهابه الموصول بعروق جسمه، المنسوج من لحمه ودمه»[52]، وهذا التحليل النفسي الفريد من نوعه، لم يكن في النقد التقليدي القديم، بل ظهر حديثا نتيجة لاحتكاك العرب بالغرب، وهو ما لمسناه كما أشرنا سابقا لدى العقاد في عبقرياته.

وبالتالي فإنه يمكننا أن نعد ابن رشيق المسيلي بحق سابقا لغيره، فتنبهه لفكرة الترجمة بالتفرد برهان على تفوقه ووعيه التام بما يكتبه، وإيمانه الراسخ بالإنسان، وعبقرية الذات البشرية؛ ذلك أن الذاتية– التي هي قمة الوجود الإنساني– والشخصية الإنسانية هي محور تقديره واهتمامه وتفكيره – وإن لم يفصح بذلك– على غرار العقاد، حتى غدت الكتابة عن العبقرية والتفرد خطا واضحا مميزا في أدبه.

وإذا كان الحصري –عند ابن رشيق– شاعرا صناعيا، فأبو إسماعيل الكاتب شاعر خيالي، فيه رقة ولطافة وصفاء، ونبوغ في علم المساحات والأشكال (الهندسة). فإذا كان الأول منطقيا عقليا يؤمن بالملموس، فالثاني خيالي وجداني يؤمن بالمجرد، فهو « لطيف الألفاظ نظيفها، رشيق المعاني وجيزها، صافي مزاج الطبع على أسلوب واحد، منفردا بعلم المساحات الأشكال، غوَّاصا

Edited with the trial version of Foxit Advanced PDF Editor
To remove this notice, visit: www.foxitsoftware.com/shopping

في بحر الحكمة على در البديع، قليل المديح والهجاء، كلفا بالمواعظ في شعره، ملغزا في التشبيهات، مولعا بالتلويح والإشارات»[53]، وبعده عن المدح والهجاء نابع من عقليته الرومانسية المائلة إلى المثالية والأخلاق والوعظ، وكنتيجة لهذه عقليته، جاءت أشعاره حكمية، إذ أورد له المؤلف أبياتا في ذم البخل ومدح البذل.

ولندع أبا إسماعيل لنقف عند إبراهيم بن سوس، الذي رغم إلمامه بكثير من العلوم غير أنه برز بذكائه وتفرد بشطارته وخفته وسرعة حفظه، فهو بارع في الخط وتزويره، فنان «كان عنده من ذلك أمر معجز، وقد انفرد في مغربنا بالقلم الرياسي الخافي انفرادا كليا لا يدانى فيه ولا ينازع، وله من سرعة الحفظ ما ليس لأحد»[54]، وحتى النموذج الشعري الوحيد الذي ذكره ابن رشيق لهذا الشاعر، يظهر فيه ذكاؤه وشطارته، فهو يلغز فيه بالقمر، ومعروف أن الألغاز لا يرغب فيها ولا ينشدها إلا الأذكياء ذوو النباهة والفطنة.[55]

وإذا كان كل من العقاد وابن رشيق يعيد بناء الشخصية المترجم لها بناءا جديدا وفق ميزتها الجوهرية، سواء من الناحية الفنية أو الفكرية أو حتى النفسية والعاطفية، فإن صاحبنا المسيلي بعكس العقاد، لم يعلل لنا إشكالية التفرد، ولم يذكر العوامل الرئيسة التي تجعل الإنسان نابغة، ذلك أن الإنسان قد يتمتع بمواهب وملكات خاصة لكنها قد لا تبرز لأنها لم تجد المناخ الملائم لتنمو وتتطور، ويتفتق عنها عبقريات فذة.

بينما نجد العقاد يرى أن النبوغ لابد له من شرطين حتى يتحقق، الأول: وجود الموهبة في الإنسان، والتي تعني مقدرته على الإنتاج الأدبي أو الفني أو العلمي والتي تساعد صاحبها على التألق والتفوق على أقرانه[56]، وملكة وموهبة ربانية يخص الله بها عبده عند مولده، فالعبقري ابن موهبته أولا، وتفرده يؤيد استحالة التساوي بين الناس في المواهب، بل استحالة إنقاص الفارق فيها[57]، وهي من أهم العوامل الأساسية لنشوء النبوغ ويدخل فيها الذكاء الجمالي والخيال الابتكاري.[58] والشرط الثاني: هو وجود الدافع المحرك والمحفز على بروز الموهبة، والمساعد على تطورها وصقلها، بتوفير الواقع المناسب والظروف الملائمة لذلك.[59]

والعقاد يؤمن بأن الدافع المحرك لظهور الموهبة خاصة في العبقريات الإسلامية، هو دائما العقيدة أو الدين، فلولا الإسلام ما كانت عبقرية محمد ولا عمر، ولا علي، ولا خالد، ولا بلال...، وفي ذلك يقول عن عبقرية عمر: «يقرأ فيه القارئ قبل كل شيء ماذا يصنع الإسلام بالنفوس، ويعلم منها قبل كل علم أن هذا الدين كان قدرة بانية منشئة من لدن المقادير التي تسيطر على الوجود، كان قدرة تلابس الضعيف فيقوى، وتلابس القوي فتنمو قوته، ... وكان يدا خالقة حاذقة تأخذ الحجارة المبعثرة في التيه فإذا هي صرح له أساس وأركان».[60]

Edited with the trial version of Foxit Advanced PDF Editor
To remove this notice, visit: www.foxitsoftware.com/shopping

وإن كان الدين أو العقيدة هو الدافع لبروز الموهبة، فإنه ما من شيء يجعل للدين نفسه معنى إن لم تكن النفس الإنسانية ذات معنى وذات قيمة، وذات علاقة أصيلة بهذا الوجود أجمع، فلا يضل معتقد عن هدي عقيدته حين يؤمن بجانب من جوانب عظمتها أو جانب من جوانب النبل والأريحية فيها[61]، تلك النفس التي تتمتع باستعداد فطري وملكة كامنة في أعماقها، تشكل بذرة لتلك العبقرية أو ذلك النبوغ. ولعبد الرحمن شكري رأي في هذه القضية، إذ يذهب إلى أنه في تحديدنا للعبقرية، يجب أن ننظر إلى الإنتاج وحده لا غير، فالأثر المعجز الذي ينجزه العبقري هو الذي يشكل الدليل الحاسم على قيمة صاحبه في ميدان الفكر والفن، والعبقري هو الذي يجب أن يكون له أرفع إنتاج وأخلده[62]، ولعل هذه الفكرة أقرب إلى طريقة ابن رشيق في تراجمه؛ لأن هذا الأخير اعتمد خاصة على إنتاج الشاعر لاكتشاف موهبته وإبراز نبوغه، وذلك ما يتجلى في الأحكام التي أوردها عن الشعراء في الأمثلة التي ذكرناها، والتي تخص في أغلبها الناحية الفنية الشعرية للمترجم له.

وإضافة إلى فكرة إيراد تفرد وتميز المترجمين، فإن هناك أمورا أخرى تؤكد أن المؤلف قد اعتمد على الناحية النفسية في تراجمه، وقد أثبتها لبعض الشعراء، من ذلك مثلا ذكره للعاهات التي قد تكون في المترجم له؛ فالنمدجاني كان أعرجا، والناجحون الضرير (محمد بن عبد الله) كان كفيفا، ومحمد بن حبيب التنوخي كان يعاني من لوثة في لسانه، والعميله (علي بن هبة الله اللخمي) كان أبلها، بليدا حتى ظنه الناس مدعيا، سارقا للشعر[63]...، ولا يخفى على أحد تأثير العقد النفسية والشعور بالنقص على الإنسان وعلى إنجازاته وإنتاجه.

وإشارة ابن رشيق للصفات الخُلُقية لدى مترجميه[64] ولروح الدعابة، وخفة الدم لدى بعضهم وذكر بعض طرائفهم، قد يعود لمحاولته إبراز الناحية النفسية للمترجمين ولشخصياتهم من العمق، فالناحية الظاهرية لا تكفي وحدها للتعريف بهم، وإن كان يوردها في بعض الأحيان، كقوله في الصفار الشاعر:« كان أبو لقمان هجين الخَلْقِ، آدم اللون، طوالا، أتي النفس، شديد القوة، قبيح الوجه، مجدورا، وكان يعرف ذلك من نفسه فلا يغضب ممن فاوضه فيه»[65]، وقوله في ابن الأبزاري:« لا تقع العين على مثله في زمانه جمالا ولا حسن زي وهيئة».[66]

وتركيز الكاتب على شخصية المترجم له، جعله يتفرس في بعضهم النباهة في ميدان يتماشى ومميزات شخصياتهم، فابن الأبزاري يصلح للقضاء، وأبو حبيب عبد الرحمان بن أحمد يصلح للفتوى[67]... مما يدل على استيعابه لأهم مميزات الشخصيات التي ترجم لها، وفهمه الكامل لها، ونظره الثاقب المميز وملاحظاته الصائبة غالبا، مما يخولنا للقول ومن خلال كل ما سبق، بأن

Edited with the trial version of Foxit Advanced PDF Editor
To remove this notice, visit: www.foxitsoftware.com/shopping

تراجم ابن رشيق في الأنموذج هي تراجم نفسية نقدية، فلم يكن راوية ناقلا، بل يتدخل ويعطي رأيه كناقد حصيف متزن، وشاعر فنان مرهف الحس، وأديب ذواقة متميز.

4- ذكر بعض أخبار ومواقف المترجمين:

وهي فقرة تكاد تكون مثبتة في أغلب تراجم الأنموذج، يتعرض فيها المؤلف لأحوال المترجم له ويذكر بعض أخباره، وما صدر عنه من مواقف، وقد يطيل في بعض التراجم فيسجل لأصحابها مواقف كثيرة: كرواية طرائفهم وملحهم، أو مجالسهم، أو محنهم،...كما فعل مع عبد الكريم النهشلي[68]، والرقيق النديم[69]، فسلط بذلك ضوءا أكثر على شخصياتهم. وقد يختصر في بعضها، فلا يستحضر لأصحابها إلا أدنى حد من الأخبار، وقد لا يذكر لهم أي خبر أو موقف، كما فعل مع ابن الفكّاه[70]، وأبي حاتم الزبنّي[71]، وقد يعود ذلك إلى قلة الأخبار عنهم أو قلة الاهتمام بهم.

يقول العقاد في إحدى مقدمات سلسلة العبقريات:« قد نذكر الحوادث توسعا في التعبير، فإن الحوادث لا تعنينا لذاتها إن لم يكن معناها تقويما للأعمال وقياما بأعمال، أو لم يكن معناها في صيغة أخرى تعريفا بأقدار الناس مما عملوه واستطاعوه».[72] وكثير من تلك الأخبار والمواقف تساعدنا على فهم شخصية المترجم وفهم شعره أيضا، من ذلك قصة الحب العفيف التي عاشتها خدوج الرصفية مع رجل يدعى أبا مروان، والتي انتهت نهاية مأساوية بموت العاشق على يد إخوتها[73]، ويظهر أثر ذلك في شعرها.

كما تبرز لنا تلك الأخبار جانبا من المهاترات والدعابات التي كانت تحدث بين الشعراء حينها، كتلك التي وقعت لابن الماعز الطبيب مع ابن القيني[74]، ولعنترة التميمي مع أحد حساده[75]، أو تلك التي جرت بين الدركادو والصفار الشاعر.[76]

إلى جانب ذلك فهي تصور المعارك العقائدية والدينية التي كانت تدور بين عامة أهل السنة وبين أنصار المذهب الشيعي ودعاته في القيروان وغيرها من مدن إفريقية، ونتعرف من خلالها على جماعة من شعراء الشيعة وما يكنه لهم ابن رشيق وباقي شعراء السنة من عداء وحقد وكراهية[77]، ومنهم شلبون المصاحفي، وعلي بن القيني، وإسحاق بن إبراهيم الرافضي، وميمون بن عبد الله الهواري....

كما يعتني ابن رشيق أيضا بالإشارة إلى الرحلة في حياة الأديب، وقد كانت في أغلبها إلى المشرق والأندلس وصقلية[78]، منها ما كانت لتحصيل العلم ومنها ما كان لأغراض أخرى. إلا أن أهم ملاحظة على مجموع تلك المواقف والأخبار، هي كون الكثير منها تتحدث عن مغامرات المترجمين مع الشراب والغلمان والتي تتجلى حتى في أشعارهم، فبانتهاء القرن الرابع الهجري ظهر تيار جديد في الشعر المغربي لم يكن موجودا من قبل، وهو تيار الغزل الحسي أو اللاهي، وتيار

Edited with the trial version of
Foxit Advanced PDF Editor
To remove this notice, visit:
www.foxitsoftware.com/shopping

الخمريات، والتغزل بالجواري والغلمان، وقد عرفه المشرق منذ العصر العباسي الأول، وكان نتاج البيئات المترفة المفعمة بجو الرخاء والنعيم، ولا يقصد منه سوى اللهو والمجون والتفكه.[79] والأمثلة على ذلك كثيرة يعج بها كتاب الأنموذج، وهي تعكس مظاهر التطرف في الترف والمجون التي سادت آنذاك المجتمع المغربي والأندلسي والعربي عامة.

5- إيراد نماذج شعرية للمترجم له:

وهي اللبنة الأساسية في هيكل الترجمة عند ابن رشيق، وأكثر عناصرها مادة وغنى، ولا تخلو ترجمة في كتاب الأنموذج من قليل أو كثير من المادة الشعرية. فالأنموذج هو كتاب تراجم ومختارات في آن واحد، تعنيه النماذج والمختارات كما تعنيه التراجم، وهناك تفاوت في حجم هذه المادة التي يوردها ابن رشيق من شاعر لآخر، فيستفيض ويكثر من المقطوعات لدى بعضهم، ويقتصر لدى البعض الآخر، وهم قليلون، على مقطوعة أو اثنتين.

ويشير الكاتب إلى أن إيراد المنتخبات الشعرية، كان عشوائيا وليس على سبيل الاختيار أو المفاضلة، فيقول في آخر ترجمته للقزاز:« وقد شرطت في هذا الكتاب أن كل ما جئت به من الأشعار على غير جهة الاختيار»[80]، إلا أنني أعتقد أن ابن رشيق لم يلتزم بهذا المبدأ في جميع تراجمه، خاصة أنه سبق ولاحظنا أنه يستشهد للشاعر حسب ما أورده له في ترجمته، إذ يحاول أن يؤكد، يدلل ويدعم الأحكام النقدية التي يوردها عن مترجمه، بأبيات ومقطوعات تبرزها وتقطع بصدقها، كما أنه من غير المعقول ألا يتدخل الذوق الفني لدى هذا الناقد، ذي الحس الفني المرهف والملاحظات النقدية الدقيقة في إيراده للأمثلة الشعرية، ولو عن غير قصد.

ولعل ما يدلل على كلامي هذا هو قول ابن رشيق في ترجمة محمد الكموني:« وشعر محمد كثير جيد وإنما أكثرت منه إدلالا بجودته وثقة بأن الملل ساقط عنه، ولا سيما أني لم أذكر له ولا لغيره معنى أعدته، ولا خلطت للشاعر الواحد من فنون الشعر فنا وجدته»[81]، فعدم تكرار المعاني يخضع لا محالة للانتقاء والتمييز، وهو ما لا يتماشى وما صرح به ابن رشيق سابقا، وما يمكن أن نخلص إليه هو أن المؤلف حاول- على الأرجح - أن يلزم نفسه بإيراد المادة الشعرية دون اختيار أو انتقاء، لكنه لم يتمكن من الالتزام بهذا الشرط، خاصة إذا أخذنا بعين الاعتبار -ومن خلال النص السابق دائما- أن ابن رشيق يحاول أن يبرز إجادة الشاعر ويدلل على براعته، فلعله أراد أن يجعل من كتابه معرضا لأعلى النماذج الشعرية المغربية، وديوانا لأجود ما جادت به قرائح شعراء القيروان خلال المائة الخامسة للهجرة. وإلا فما معنى عبارات الإعجاب والثناء في سياق الأحكام التي يعقب بها على مادته الشعرية في الغالب؟

Edited with the trial version of Foxit Advanced PDF Editor
To remove this notice, visit: www.foxitsoftware.com/shopping

وعلى العموم فإن ما نلاحظه على النماذج الشعرية في الأنموذج هو تنوع تلك النصوص على حسب ما هو معروف ومتداول من الأغراض الشعرية حينها: كالزهد، والغزل، والرثاء، والمدح وغير ذلك. كما أنه ينوع في الترجمة الواحدة، فيورد نصوصا متعددة في أغراض مختلفة، خاصة في التراجم التي يستفيض فيها كترجمة ابن قاضي ميلة، الذي أورد له فيها نصا في المديح، ومقطوعات في الوصف والرثاء[82]، وترجمة الرقيق النديم التي أورد له فيها نصوصا تخص، المدح، والوصف، ومقطوعة يرد فيها على أبيات كتبها إليه عمار بن جميل، وأخرى في الغزل، ومقطوعة من قصيدة يتشوق فيها إخوانه بمصر، وأخرى في الرثاء...[83]

هذا، وحاول ابن رشيق التوسط في حجم المادة الشعرية التي يوردها، إذ يقول في بقية النص الذي أوردناه أعلاه في ترجمة محمد الكموني:«... فإكثاري توسط كما شرطت وإن أفرطت، وكذلك اختصاري إذا اجتهدت وما فرطت، إذ كانت الحال كقول الله تعالى في سورة البقرة (الآية236) :﴿عَلَى المُوسِعِ قَدْرُهُ وَعَلَى المُقْتِرِ قَدْرُهُ﴾، وقوله (الآية286):﴿لاَ يُكَلِّفُ اللهُ نَفْسًا إِلاَّ وُسْعَهَا لَهَا ما كَسَبَتْ وَعَلَيْهَاَ ما اكْتَسَبَتْ﴾»[84]، معنى ذلك أن المؤلف قد حاول أن يثبت لكل شاعر مادة تقارب في الحجم مادة بقية الشعراء فإن هو أكثر لبعضهم – كما قد يبدو للقارئ– فإن ذلك توسط لا تفريط، فتبرير ذلك كثرة شعرهم، كما في ترجمة ابن الصفار السوسي إذ يقول فيها:« وكان دخوله عليه بقصيدة بائية طويلة جدا أذكر منها ما يخف ذكره...»[85]، وإن هو اختصر لبعضهم فليس ذلك تقصيرا لأن أشعارهم ليست متداولة كثيرا، ولم يدخر الكاتب جهدا في تقصيها، ومن ذلك قوله في ترجمة إسحاق بن إبراهيم الرافضي:« ولا أعرف من شعر إسحاق إلا قوله...»(86)، أو كقوله في ترجمة كاتب كرامة:«... ولم يظهر له خبر ولا حفظ له إلا قوله...»(87)، وفي ترجمة عبد الله الصدفي:« له شعر طائل ومعان عجيبة... إلا أنه خامل رث الحال يطرح نفسه حيث وجد القناعة، حتى أن بعضهم سماه سقراط لتلك العلة تشبيها به... فشعره لذلك قليل بأيدي الناس لا أعرف منه إلا أبياتا كتبها إليَّ في شكر ابن مروان القفصي...».[88]

6- التعقيب بأحكام نقدية على الأشعار:

ويعنى ابن رشيق كثيرا بإعطاء رأيه كناقد في النصوص التي يوردها لمترجميه، فهو لا يكتفي بعرض النص الشعري بل يحرص غالبا على مصاحبته بتعليق نقدي يكشف عن مستواه ويقوّم به شعر صاحبه، وهي تعاليق لها وزنها النقدي لأنها صادرة عن شاعر متمرس بقول الشعر، وناقد خبير متمكن، تتميز آراؤه بدقة وإيجاز متناهيين.

من ذلك ما علق به على قطعة شعرية لأبي علي بن سفيان الصيرفي قالها في الفخر يقول:« فهذا الكلام منتقي، ليس فوقه مرتقى، اتبع فيه أو وارد، ومازال الناس على هذا غير أن الحاذق من

Edited with the trial version of
Foxit Advanced PDF Editor
To remove this notice, visit:
www.foxitsoftware.com/shopping

باعد».[89] وهذا التعقيب لا يعدو أحيانا أن يكون مجرد تعليق خال من أي حكم نقدي، كقوله في أبيات رثاء للحسين بن علي الصيرفي: « مما يزيد على هذا التفجع والتوجع الذي يقطع القلوب حسراتٍ ويذهب بالعيون عبراتٍ»[90]، ورغم أن أكثر هذه التعاليق موجزة مختصرة، إلا أننا قد نصادف بعضا منها مستفيضة مليئة بالشروح حتى تستغرق صفحة كاملة، من ذلك تعليقه على مقطوعة في وصف "الجوزاء" لابن الربيب القاضي.[91] هذه الأحكام النقدية التي يزخر بها كتاب الأنموذج، يمكن أن تعد بدايات للنقد التطبيقي في المغرب.

ومهما يكن فإن أهمية هذا الكتاب لا تنحصر فقط في التراجم أو الناحية النقدية، بل وأيضا في مادته الشعرية، التي لم نتعرف على أغلبها إلا من خلاله. وهو في كثير من الأحيان يبين لنا المناسبة التي قيلت فيها القصائد أو المقطوعات المختارة، ومواضيعها أيضا، من ذلك قوله في الرقيق النديم:« وكان قدم مصر سنة ثمان وثمانين وثلاثمائة بهدية من نصير الدولة باديس بن زيري إلى الحاكم، فقال قصيدة يذكر فيها المناهل...»[92]، وقوله في ترجمته لأبي العباس بن حديدة:« له في رمَّان... وله في النجوم... ثم ذكر البيداء فقال... ومنه في ثغور... وخرج أبو العباس في جماعة من رفقائه طالبا للتنزه فحلّوا بروضة فقال...».[93]

7- ذكر تاريخ الوفاة ومحلها:

عادة ما يختم ابن رشيق تراجمه بذكر تاريخ وفاة المترجمين(من توفي منهم)، ومكانها، لكنه قد يشذ أحيانا عن هذه القاعدة، فيورد هذه الفقرة في بداية الترجمة أو في وسطها كما هو الحال في ترجمة خلف بن أحمد السعدي.[94]

ومن الملاحظ أن الحسن لم يورد سنة الميلاد إلا لنفسه، وهذه الثغرة في منهج ابن رشيق قد تعود إما لجهله؛ ذلك أنه لم يكن من عادة المؤرخين للأدب مساءلة الأدباء عن تواريخ ولادتهم[95]، خاصة أن شعراء الأنموذج كلهم من المعاصرين لابن رشيق، وإما لقلة اهتمامه بهذه النقطة على غرار أغلب كتاب التراجم المسلمين، نظرا – كما سبق وأشرنا- لأن شهرة المرء لا تعرف حين مولده بل بعد أن يبرهن هو على مكانته ويثبت تفوقه، فيحفظ المؤرخون تاريخ وفاته بعد أن يدل عليه أدبه أو علمه أو ما حققه من إنجازات.

غير أن الكاتب كثيرا ما يستعيض عن ذكر تاريخ الميلاد بذكر عمر المترجم لدى وفاته، ليترك المجال للقارئ فيقدر بالتقريب تاريخ ولادته، من ذلك قوله في ترجمة عبد الله بن الجبنياني:« وكانت وفاته بميورقة سنة خمس عشرة وأربعمائة وقد بلغ الأربعين».[96] وقد يكتفي أحيانا بالإشارة إلى أن المترجم قد توفي صغيرا في السن أو شيخا معمرا دون ذكر السن، كقوله في ترجمة عمران بن سليمان المسيلي حيث يقول:« توفي سنة خمس عشرة وأربعمائة ولم يبلغ الثلاثين».[97]

Edited with the trial version of Foxit Advanced PDF Editor
To remove this notice, visit: www.foxitsoftware.com/shopping

وغالبا ما يذكر ابن رشيق سبب وفاة المترجم، فعنترة التميمي نعس ليلة، فنشب حريق في بيته ولم يقدر على النفاذ بجلده لكبره وضعفه وعدم قدرته على الحركة، فمات سنة 410هـ، وعبد الرحمن الفراسي سقط من سطح وهو سكران فمات سنة 408هـ، وابن المؤدب اشتهر بمحبة غلام علَّمه فتذمم أبوه أن يقتله جهارا، وخرجوا للصيد فأمر من حلَّ حزام دابته سرا، فطاردوه، فسقط وانكسر عظم فخذه حتى ظهر مخه وعظمه ومات سنة 414هـ، ومحمد بن أبي معتوج الباجي قتل بسبب الروافض سنة 407هـ...[98]

كانت هذه الفقرات أو العناصر الأساسية التي تتخلل الترجمة في عمومها، وهناك عناصر فرعية وملاحظات عامة سنحاول تقصيها في العنصر الموالي.

ب- خصائص ومميزات حول منهج ابن رشيق في الترجمة:

1- من الأمور الهامة الملاحظة في هيكل الترجمة لدى ابن رشيق هو إهمال ذكر مؤلفات المترجم، ولعل السبب في ذلك كون الكتاب مخصصا للشعر والشعراء مما دعا ابن رشيق إلى إغفال ذكر الكتب أو المؤلفات التي يكون المترجم قد صنفها في الأدب أو غيره، اللهم إلا بعض الإشارات النادرة التي تأتي في سياق الحديث والتي لا يورد فيها عنوان الكتاب المذكور، ومن هذا القبيل قوله في ترجمة الحصري:« وأخذ في تأليف الأخبار وصنعة الأشعار... ووصلت تأليفاته صقلية وغيرها وله تآليف جيدة في ملح الشعر والخبر»[99]، وكذلك قوله في ابن الربيب القاضي:« بلغ به النهاية في الأدب وعلم الخبر والنسب، وله في ذلك تأليف مشهور».[100] ولو أن الحسن اعتنى بهذا الجانب، لكان كتابه معرضا حافظا للكتب والمؤلفات التي اشتهرت في عصره، بذكر عناوينها، وتلخيص مضامينها، مثلما كان معرضا لأشعار وتراجم شعراء القيروان المعاصرين له.

2- يبدو أن صاحب الأنموذج لم يحص كل شعراء القيروان في الفترة التي يغطيها بالدراسة أو على الأقل كل المشاهير من أرباب الشعر، فقصر كتابه على شعراء زمانه لا يعني جمعهم كلهم، حيث نجد بعض الشعراء كانوا من أهل القيروان، يعرفهم ابن رشيق، وهو معجب بأشعارهم، ولا نجد لهم تراجم في الأنموذج، وهم: أبو عمرو عثمان بن أبي بكر الصفاقسي، المعروف بابن الضابط[101]، وأبو الفضل جعفر كاتب المعز بن سيف العزيز بالله الذي ذكر ابن رشيق بأنه كان شاعرا حاذقا صاحب معان وتوليد[102]، ومع ذلك لم يدرج اسمه في قائمة التراجم، وغيلان بن تميم الفزاري شقيق مضر، وقد قال عنه الكاتب حين ترجم لأخيه (مضر) إنه أعلم وأشهر من أخيه[103]، فهو إما لم يكن شاعرا، وإما أن الكاتب قد أغفله كما أغفل غيره، ولعل مرد ذلك أمران: إما أنه أراد أن يلتزم بمائة شاعر فلم يرد أن يزيد على ذلك ولا نعلم السبب، وإما أنه أثبت هؤلاء الشعراء في موضع آخر ولعله كتابه المفقود "شعراء الكتَّاب".

Edited with the trial version of Foxit Advanced PDF Editor
To remove this notice, visit: www.foxitsoftware.com/shopping

3- من المعطيات القيمة التي أثبتها ابن رشيق لإغناء تراجمه، اهتمامه بذكر التواريخ عند ذكره للأخبار والحوادث، من ذلك قوله عن عمران بن سليمان المسيلي:« خالطني سنة ثمان وأربعمائة...»[104]، وعن إسماعيل بن الخازن:« وقال يمدح سيدنا المعز ويذكر هدية أتته سنة عشرين وأربعمائة»[105]، هذه الدقة في تحديد الإطار الزماني للأخبار، تدل على اهتمامه بضبط الوقائع وتدقيقها، ووضعها في سياقها التاريخي، الأمر الذي يدفعنا للقول أن ابن رشيق ليس أديبا وشاعرا فقط، بل ومؤرخا أيضا.

4- لقد أتيح للكاتب أن يشير إلى جوانب تخص بيئة الشاعر من حين لآخر، من ذلك تنبيهه على بيوتات الأدب والعلم لدى المترجم له، فالأدب صناعة من بعض جوانبه، وقد يحدث أن يتوارثها الأبناء عن الآباء، ومن عادة مؤرخي الأدب أن يهتموا بهذه النقطة فيذكروها في تآليفهم[106]، ومما أورده ابن رشيق في ذلك قوله عن محمد بن إسماعيل الكاتب:« من بيت شعر وكتابة قديما وحديثا، كان أبوه إسماعيل من جلة أهل زمانه في الرئاسة والكتابة وعلم الدواوين وأسرار الشعر».[107] ويشير ابن رشيق إلى صلة القرابة التي قد تربط الشعراء ببعضهم، حيث يقول مثلا في ترجمة عنترة التميمي: «...وهو ابن خالة علي التونسي الإيادي».[108]

وابن رشيق في ذكره لبيوتات العلم والأدب قد يترجم لأحد أقارب الشاعر، أو لمن له صلة به، كقوله في ترجمة أبي حبيب عبد الرحمن بن أحمد بن حبيب:« ولد بالمحمدية وتأدب بالأندلس، دخلها صغيرا مع أبيه، وكان من صالحي الأمة وعبادها وزهادها، ترك التجارة لشيء اطلع عليه من شريك كان له، فتبرأ له من جميع ما في يديه وخرج فقيرا إلى الأندلس غازيا فذُكِرَ هنالك ولم يَخْفَ حاله، وسكن الثغر مرابطا حتى قُبِض قبل الأربعمائة».[109] مما يجزم بوجود تراجم جزئية تتخلل الترجمة الأم في كتاب الأنموذج، وهو ما يمكن أن نصفه بالترجمة المركبة. وقد يقارن ابن رشيق بين مترجمه وأحد المشهورين من عائلته، كما فعل مع ابن مشرق السلمي إذ يقول: «...هذا شعر سلس، غير شرس، عذب الظاهر، رطب المكاسر... يشرب شربا ويلصق بالقلوب حبا، وأبوه أيضا شاعر مجوّد غير أنه لا ينسب إلى ذلك».[110]

وابن رشيق في تنبيهه على بيئة الشاعر لا يقتصر على الإطار العائلي فقط بل يتجاوزه إلى ذكر أصحابه وشيوخه، ومن هذا القبيل قوله في ترجمة ابن الربيب القاضي:« صحب بني أبي العرب، فتقدم تقدما كبيرا».[111] من كل ما سبق يتجلى لنا اهتمام ابن رشيق ببيئة الشاعر وظروفه المحيطة به، وإيمانه بتأثيرها على شخصيته الأدبية، وتكوينه النفسي والفكري، وعلى إنتاجه أيضا.

5- ومن خصائص طريقة ابن رشيق في الترجمة أيضا اهتمامه أحيانا بذكر الوظائف التي تقلدها الأديب، وهو أمر من شأنه إضفاء المزيد من الإضاءة والوضوح على شخصية الشاعر.

Edited with the trial version of Foxit Advanced PDF Editor
To remove this notice, visit: www.foxitsoftware.com/shopping

6- ولا يخفى على أحد ما لتأثير الفكر المشرقي في نظيره المغربي، فأهل المغرب كانوا يتخذون من أهل المشرق وعلمائه وأدبائه لأنفسهم إماما على حد تعبير الباحث عبد الرؤوف مخلوف[112]، وكذلك كان الأمر بالنسبة لابن رشيق، ولعل أبرز ما يجسد ذلك في كتاب الأنموذج أن الكاتب يحاول أن يجعل للشعراء نظراء في المشرق، فالحسن بن حربون ينحو نحو أبي القاسم بن هانئ في الإجلاب والتهويل[113]، وعبد العزيز بن البقال سلك طريق أبي العتاهية[114]، أما الحصري فهو يتشبه بأبي تمام في احتفاله بالصنعة... فهو يجعل من صفات مدح هذا الشاعر أو ذاك أنه سلك سبيل هذا الشاعر أو ذاك من المشرق[115]، أو أنه حينما يحاول شرح طريقة أحدهم في الشعر، يختصر ذلك بذكر من اشتهر بتلك الطريقة من المشارقة، فأبو تمام مثلا إمام مدرسة الصنعة هو النموذج الأمثل وربما الأوحد الذي يصلح أن يشبه به شاعر ينحو إلى التصنيع والتكلف في شعره، وهؤلاء الأدباء –في نظر ابن رشيق وغيره من المغاربة– هم النموذج والأساس الجدير بالاحتذاء، وما يأتي على شاكلتهم مجرد محاكاة وتقليد لا أكثر، لكن رغم ذلك فإن ابن رشيق أظهر ما للمغاربة من تفوق قد يبزون به المشارقة أنفسهم، كابن الصفار السوسي الذي يقول فيه بعد أن أورد له مقطوعة شعرية:« هذا الكلام عربي صريح قلما يأتي بمثله المتقدمون المحسنون فضلا عن المتأخرين لاسيما في مثل هذه القافية، وأنت ترى حال أبي النواس فيها على جلالته وجرأته»[116]، والدركادو الذي يقول فيه:«...ولا أعلم في عصرنا أحلى من طريقته»[117]، ويقول في ابن قاضي ميلة:« فأوطن البلد وصنع فيها قصيدته الفائية، وما أعلم لأحد في وزنها ورويّها مثلها».[118]

وعلى كل فإن الأحكام السابقة تكشف لنا عن الروح المشرقية التي ما تزال عالقة بأذهان نقادنا حينها، حيث نجد عندهم دائما المثيل المشابه وكأن الأدب المشرقي هو الأساس والمقياس، غير أن تلك الروح لم تطغ على الخصوصية المغربية التي بدأت تبرز، ليتحرر الأدب نوعا ما من تبعيته للمشرق.

7- ومما يلاحظ أيضا في تراجم الأنموذج اهتمام ابن رشيق بالخط، فيقول مثلا في ترجمة عبد العزيز الطارفي:« وله من الخط البارع خط المعلّى من قداح الميسر»[119]، وقد تكون هذه النقطة من أهم مميزات المغاربة الذين استطاعوا عن طريق اهتمامهم بالخط الانفراد والتميز بالخط المغربي.[120]

8- رغم أن هذا الكتاب قد خُصِّص لتراجم الشعراء ومقتطفات من أشعارهم، إلا أنه لا يهمل الإشارة إلى النثر إن كان المترجم من أهله ومن المشتهرين به، فيقول عن خدوج الرصفية أن لها ترسلا لا يقع مثله إلا لحُذاق المترسلين.[121]

Edited with the trial version of
Foxit Advanced PDF Editor
To remove this notice, visit:
www.foxitsoftware.com/shopping

9- إذا تحدثنا عن جانب الموضوعية في كتاب الأنموذج، فإننا نجد منها الشيء الكثير ويكفينا دلالة على ذلك ترجمته لابن شرف الجذامي، وإنصافه له، وقد كان ندا وقرينا له، ومزاحما له في مكانته عند المعز بن باديس، حتى بلغت المنافسة بينهما حد البغضاء[122]، ولم يحتفظ ابن رشيق في قلبه بأي حقد أو كره تجاه ابن شرف خاصة أنه كان حسن المعاشرة طيب النفس متسامحا.

ومما قاله عنه في ترجمته:« شاعر حاذق، متصرف كثير المعاني والتوليد، جيد المقطعات والتقصيد، لا ينكر حذقه، ولا يدفع سبقه، أشعر أهل زمانه من شق له غباره، وأحذقهم من اقتفى آثاره، وما منهم إلا أغر نجيب، ولقد شهدته مرات يكتب القصيدة في غير مسودة كأنه حفظها، ثم يقوم فينشدها، وأما المقطعات فما أحصى ما يصنع منها كل يوم بحضرتي... ويأتي بها بديعا مخترعا لا تنساغ لغيره على الفكرة والروية إلا جهدا»[123]، ثم يقول في أبيات أوردها له:« وهذا الكلام قد اشتدت متونه، واستقامت بطونه، وراقت من كل ناحية محاسنه وفنونه».[124] وحسبُ ابن شرف هذه الكلمات وهذه الشهادة من ابن رشيق على جلالة قدره، ويكفيه ما فيها من مدح وإيفاء حق واعتراف بالحذق والإجادة والتفوق، ربما لم يكن يتوقعه من أصحابه فما بالك بأشد أنداده الذي هداه خلقه العلمي وموضوعيته وتواضعه إلى إنصاف خصمه، دون أن يلقي إلى تلك الخصومة بالا، حتى إن الذي يقرأ ترجمته تلك، يخال أنهما صديقان حميمان متحابان، ولا يجمعهما إلا الصفاء والألفة والمودة.

لقد كان ابن رشيق عالما جليلا، رفع من شأن خصومه وأنصفهم، مما يدل على أنه حين كتب هذه التراجم لم يكن متعصبا أو منحازا، ولم تؤثر عليه أي عداوة أو خصومة أو تلاح وهذه هي قمة الأمانة العلمية، حين ينصف الكاتب خصومه ولا ينظر إليهم حين يكتب إلا بعين الأديب الناقد والعالم الموضوعي.

رابعا- أسلوب ابن رشيق في تراجمه:

من الملاحظ على أسلوب الكاتب تخلصه من الاسناد الذي ظل مصاحبا لأساليب كتَّاب التراجم لمدة طويلة، كما يبدو أن ابن رشيق كان يفرق في أسلوبه بين كتابة الأبحاث وبين الكتابة الأدبية؛ فهو في شعره مفتون بالترصيع، وزخارف البديع، ومفاتن التصنيع، لكنه في نثره ينصرف عن ذلك كله، فهو في الأبحاث معني بالفكرة يلتمس لها أقرب السبل وأسهلها في التعبير عنها، بينما حينما يتناول موضوعات أدبية بحتة، يستخدم مهارته وقدراته على التحسين والترصيع ومحاسن البديع[125]، وفي ذلك يقول الباحث عبد الرحمن ياغي:« ولعل صاحبنا كان يفرق في ذلك بين كتابة الأبحاث وبين الكتابة الأدبية الإنشائية الصرفة؛ فكان في الأبحاث معنيا بالفكرة يوسع فيها نفسه، ويلتمس لها في التعبير أقرب السبيل، حتى إذا تناول موضوعا أدبيا صرفا في رسالة من

Edited with the trial version of Foxit Advanced PDF Editor
To remove this notice, visit: www.foxitsoftware.com/shopping

الرسائل كتلك المناقضات والمساجلات التي كانت تقوم بينه وبين ابن شرف، رجع إلى ما يختزنه من قدرة على التصنيع والترصيع والمحسنات البديعية والسجع المفرط وما إلى ذلك».[126]

وذلك ما يتضح من خلال كتاب الأنموذج، فأسلوبه فيه على العموم سهل واضح، دقيق، لا تكلف فيه ولا تصنع، لاحظ مثلا قوله في ترجمته لمحمد بن إبراهيم الكموني:« شاعر فصيح، حسن التقسيم، جيد الترسيم، ظاهر البلاغة، عالم بأسرار الكلام، إذا ركب معنى أجاده، وله في المعاتبات مذهب مليح»[127]، فأسلوب ابن رشيق هنا تلوح عليه السلاسة والسهولة والوضوح والقوة.

ولابن رشيق تعابير خاصة به، هي ثمرة دراسته وتعمقه في إبداع الشاعر، لا يقولها أبدا سواه[128]، فهو يصف "الدركادو" فيقول:«...غزل الشعر، مطبوع، موجز الكلام، سافر أوجه المعاني، تفهم نجواه من فحواه، لا يكاد يحسب شعره موزونا، ولا القوافي مشهورة لسهولة مخرجه،... وربما قبض من عنانه فاشتدت شكيمته»[129]، ويقول في عبد العزيز بن مخلوف: « مثقف لنواحي الكلام رطبها، حلو مذاقة الطبع عذبها...»[130]، ويقول في الحسن بن علي الصيرفي: «...سلس الطبع، طيار الشعر، خفيف أرواح الكلام...»[131]، وغيرها من التعبيرات الخاصة المميزة، التي تضفي على أسلوبه متعة ورونقا خاصا. إلا أنه لا ينصرف عن السجع انصرافا كليا، يحن إليه من حين لآخر، ويزين به المقتطفات الشعرية، ويرصع به فواصله بينها[132]، يظهر ذلك خاصة في الأحكام النقدية التي يعقب بها على النماذج الشعرية للمترجم، فبعد أن أورد بيتين لمحمد بن مشرق السلمي، قال عنهما:« هذا شعر سلس غير شرس، عذب الظاهر، رطب المكاسر، سالم من التعسف والإكراه، يشرب شربا، ويعلق بالقلوب حبا».[133] لكن هذا السجع خفيف على السمع محبب، « تتنفس فيه الفكرة في حرية واتساع لا تحس بضيق ولا تخشى من اختناق»[134]، وحب ابن رشيق للبديع جعله يبتكر- حسب الباحث عبد الرحمن بن محمد الجيلالي- سبعة وثلاثين نوعا من أنواع فن البديع[135]، ورغم ما طبع عصر الكاتب من جنوح للصنعة والتكلف، الذي من مظاهره الشائعة حينها عند الأدباء التزام السجع، والإكثار من الإستعارات وأنواع المجاز والتأنق اللفظي[136]، إلا أن ابن رشيق لم يجرفه هذا التيار الذي احتذاه معاصروه الذين كانوا يرون فيه الأنموذج الراقي في أساليب الكتابة والبلاغة، فلم يسلم من حمى البديع إلا ابن رشيق- حسب رأي الباحث عبد الله شريط[137] – على الأقل في كتابته للأبحاث. وتقودنا هذه الأمثلة وغيرها إلى القول بأن ابن رشيق كان رجلا عالما متعمقا في الأدب، خاصة الشعر منه، سابرا لأغواره وكافة جوانبه محيطا بحيثياته بصيرا بها، وليس أدل على ذلك من كتاب العمدة.

Edited with the trial version of Foxit Advanced PDF Editor
To remove this notice, visit: www.foxitsoftware.com/shopping

خاتمة:

وعلى العموم فإن كتاب الأنموذج يعد أحد أبرز كتب التراجم المغربية القديمة، وقد ألفه صاحبه مستغلا فيه مقدرته النقدية، وترجم من خلال هذه المقدرة لشعراء القيروان المعاصرين له حسب ما يختص به كل واحد منهم، وأصدر عليهم أحكاما مختلفة لا تخلو من نظر نافذ بالشعر، حسب مقاييسه النقدية الخاصة، وهي بذلك تراجم هادفة، وطريقة مميزة للتعريف بالأدباء من خلال إنتاجهم وما يميز كل واحد منهم عن البقية، حيث تتميز بالعمق والدقة وإعمال الفكر، وهو ذو أهمية متنوعة الجوانب؛ فإضافة إلى تراجم شعراء العصر، فهو يحوي نماذج هامة من أشعارهم مما يستقل المؤلف بذكره، وفيه ملاحظات تاريخية واجتماعية وثقافية تلقي أضواء على مختلف مظاهر العصر والحياة الثقافية والفكرية والأدبية المزدهرة في المغرب في العصر الصنهاجي، وتكشف لنا عن الصلة القوية بين أطراف البلاد الإسلامية مما يقوي الرابطة بين شعرائها، كما يعد معرضا لحياة المؤلف وعلاقاته وتجاربه وصلته بالبلاط، ومجالا عرفنا فيه شخصيته التاريخية والأدبية ومشاركته النشطة في الحياة الأدبية بالقيروان، وأسلوبه المرسل المتحرر من القيود، والسهل والقوي في آن واحد، والذي لا يستهدف فيه السجع إلا أحيانا قليلة، يبرز لنا بوضوح ودقة آراءه وتقريراته وأحكامه على المترجمين، وقد حاولت رصد أهم خصائص التراجم في هذا الكتاب، بما فيها ترجمة ابن رشيق لنفسه، والكشف عن أهم مميزات أسلوبه وطريقته في مجال التراجم، والكتاب عامة يبرهن على أن كاتبه علم من الأعلام النادرين الذين حظي بهم المغرب قديما، فهو كقمة الهرم، لا يرقى إليها صاعد إلا من قاعدة واسعة، فابن رشيق لم يكن شاعرا ملهما فحسب، أو كاتبا فذا فحسب، أو ناقدا بز أقرانه في مجال النقد فحسب، أو عالما باللغة عارفا بأسرارها فحسب، بل كان هذا كله مجتمعا.

الهوامش:

(*)- أبو علي الحسن بن رشيق المسيلي القيرواني، ولد سنة 390هـ بالمسيلة وارتحل إلى القيروان سنة 406هـ، أديب وشاعر بليغ وناقد حصيف، درس النحو والشعر واللغة والعروض والأدب والنقد على يد شيوخ نوابغ من عصره، كأبي إسحاق الحصري ومحمد بن جعفر القزاز، مدح ابن رشيق صاحب القيروان المعز بن باديس الصنهاجي واتصل بخدمته، حيث اشتغل بالديوان وتولى شؤون الكتابة المتصلة بالجيش، ثم انتقل إلى صقلية بعد نكبة القيروان وأقام ثمة حتى توفي سنة 456هـ، خلف ما يربو عن الثلاثين كتابا في الأدب واللغو والنقد والتراجم وطرائف الشعر والتاريخ... ضاع كثير منها، أهمها على الإطلاق كتابه "العمدة في محاسن الشعر وآدابه ونقده". (محمد الطمار، تاريخ الأدب الجزائري، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، 1981. ص79، ومحمود محفوظ، تراجم المؤلفين التونسيين، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ط1، 1962، ج2، ص352).

Edited with the trial version of Foxit Advanced PDF Editor
To remove this notice, visit: www.foxitsoftware.com/shopping

(1)- ينظر: الحسن بن رشيق المسيلي، أنموذج الزمان في شعراء القيروان، تحقيق: بشير البكوش ومحمد العروسي المطوي، الدار التونسية للنشر، تونس، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، ط1، 1986، ص25 من مقدمة التحقيق.

(2)- ينظر: عبد الرؤوف مخلوف، ابن رشيق القيرواني، دار المعارف، القاهرة، 1964، ص68.

(3)- ينظر: محمود محفوظ، تراجم المؤلفين التونسيين، ج2، ص353.

(4)- علي بن محمد، ابن بسام الأندلسي وكتاب الذخيرة، دراسة في حياة الرجل وأهم جوانب الكتاب، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، 1989، ص203.

(5)- ينظر: ابن رشيق، الأنموذج، ص24 من مقدمة التحقيق.

(6)- ينظر: المصدر نفسه، ص33 من مقدمة التحقيق.

(7)- المصدر نفسه، ص418.

(8)- المصدر نفسه، ص226.

(9)- المصدر نفسه، ص318.

(10)- ينظر: المصدر نفسه، ص156.

(11)- المصدر نفسه، ص20 من مقدمة التحقيق.

(12)- ينظر: المصدر نفسه، فهرس التراجم.

(13)- ينظر: المصدر نفسه، ص 32 من مقدمة التحقيق.

(14)- المصدر نفسه، ص48-49.

(15)- ينظر: المصدر نفسه، ص 25 من مقدمة التحقيق.

(16)- المصدر نفسه، ص92.

(17)- "الاهتدام" هو السرقة فيما دون البيت ويسمى أيضا "النسخ": (ابن رشيق، العمدة، ج2، ص283، باب السرقات).

(18)- ابن رشيق، الأنموذج، ص299.

(19)- ينظر: ابن رشيق، العمدة، ج1، ص84، باب المشاهير من الشعراء.

(20)- ينظر: المصدر نفسه، ج1، ص89.

(21)- يرى ابن رشيق أن الشعر الجيد هو الذي يجمع بين أصالة القديم ومعطيات الجديد، مساير للعصر ومستجداته وظروفه، فقد كان يؤمن بالتسوية بين القديم والحديث والحكم للأجود منهما، (بشير خلدون، الحركة النقدية على أيام ابن رشيق المسيلي، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، 1981، ص191، وابن رشيق، العمدة، ج1، ص80 ، باب القدماء والمحدثين).

(22)- ينظر: مصطفى صادق الرافعي، تاريخ آداب العرب، دار الكتب العلمية، بيروت، ط1، 2000، ج3، ص263.

(23)- ابن رشيق، الأنموذج، ص221.

(24)- المصدر نفسه، ص123.

(25) - ينظر: المصدر نفسه، ص308.

(26)- ينظر: المصدر نفسه، ص314.

(27)- علي بن محمد، ابن بسام الأندلسي، ص226.

(28) - ابن رشيق، الأنموذج، ص146.

(29)- ينظر: ابن رشيق، العمدة، ج1، باب الشعر والشعراء.

(30)- ينظر مثلا ترجمة: أبو هلال التجيبي، ص102, وترجمة: الوراق السوسي، ص390.

Edited with the trial version of Foxit Advanced PDF Editor
To remove this notice, visit: www.foxitsoftware.com/shopping

(31)- ينظر مثلا ترجمة: خدوج الرصفية، ص123 وترجمة: عبد الله بن رشيق، ص191.
(32)- ابن رشيق، الأنموذج، ص216.
(33)- المصدر نفسه، ص311.
(34)-(35)- المصدر نفسه، ص189، 381.
(36)-(37)- المصدر نفسه، ص120، 279.
(38)- ينظر: عبد الله الترغي المرابط، ابن الخطيب في كتابة الترجمة ، مجلة كلية الآداب، الرباط، ع 2، 1987، ص211.
(39)- عباس محمود العقاد، العبقريات الإسلامية، دار الكتاب اللبناني، بيروت، ط1، 1974، مج3، ذو النورين ، ص11.
(40)- محمد مصايف، جماعة الديوان في النقد، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، ط2، 1982، ص204.
(41)- عبد الرحمن ياغي، حياة القيروان وموقف ابن رشيق منها، دار الثقافة، بيروت، ط2، 1962، ص371.
(42)- كذا تسميه نعمات فؤاد في: الجمال والحرية والشخصية الإنسانية في أدب العقاد، دار المعارف، القاهرة، 1983، ص44.
(43)- عباس محمود العقاد، ساعات بين الكتب، منشورات المكتبة العصرية، بيروت، د.ت، ص531.
(44)- ينظر: جبور عبد النور، المعجم الأدبي، دار العلم للملاين، بيروت، ط1، 1979.ج1، ص170.
(45)- ينظر: محمد مصايف، جماعة الديوان في النقد، ص201.
(46)- مصطفى صادق الرافعي، تاريخ آداب العرب، دار الكتب العلمية، بيروت، ط1، 2000.ج3، ص39.
(47)- ابن رشيق، الأنموذج، ص50.
(48)-(49)- المصدر نفسه، ص55، 65.
(50)- المصدر نفسه، ص45-46.
(51)- ينظر: المصدر نفسه، ص47.
(52)- نعمات أحمد، فؤاد، الجمال والحرية والشخصية الإنسانية في أدب العقاد، دار المعارف، القاهرة، 1983، ص46.
(53)- ابن رشيق، الأنموذج، ص50.
(54)- المصدر نفسه: ص65.
(55)- المصدر نفسه: ص369.
(56)- إميل يعقوب، بسام بركة، مي شيخاني، قاموس المطلحات اللغوية والأدبية،عربي إنجليزي فرنسي، 1987، ص381.
(57)- ينظر: نعمات فؤاد، الجمال والحرية والشخصية الإنسانية في أدب العقاد، ص40.
(58)- ينظر: عز الدين إسماعيل، التفسير النفسي للأدب، دار العودة، بيروت، ط 4، 1981، ص36.
(59)- ينظر: نعمات فؤاد، الجمال والحرية والشخصية الإنسانية في أدب العقاد، ص64-65.
(60)- العقاد، العبقريات الإسلامية، مج3، ذو النورين، ص12.
(61)- ينظر: محمد مصايف، جماعة الديوان في النقد، ص202.
(62)- ينظر: محمد مصايف، جماعة الديوان في النقد، ص202.
(63)- ينظر: ابن رشيق، الأنموذج، ص292، 318، 387، 334، 370، 294.
(64)- المصدر نفسه، ص434.
(65)- المصدر نفسه، ص130.
(66)- ينظر: المصدر نفسه، ص130، 141 على الترتيب.
(67)- ينظر: المصدر نفسه، ص170.

Edited with the trial version of
Foxit Advanced PDF Editor
To remove this notice, visit:
www.foxitsoftware.com/shopping

(68)- ينظر: المصدر نفسه، ص55.
(69)- ينظر: المصدر نفسه، ص136.
(70)- ينظر: المصدر نفسه، ص353.
(71)- العقاد، العبقريات الإسلامية، مج4، معاوية بن أبي سفيان، ص199.
(72)- ينظر: ابن رشيق، الأنموذج، ص124.
(73)- ينظر: المصدر نفسه، ص314.
(74)- ينظر: المصدر نفسه، ص271.
(75)- ينظر: المصدر نفسه، ص314.
(76)- ينظر: المصدر نفسه، ص439.
(77)- ينظر: المصدر نفسه، ص36 من مقدمة التحقيق.
(78)- ينظر مثلا: ترجمة علي بن أبي علي الناسخ، ص 262، و ترجمة: علي بن حبيب التنوخي، ص 279.
(79)- ينظر: عبد العزيز نبوي، محاضرات في الشعر المغربي القديم، ديوان المطبوعات الجامعية، 1983، ص80.
(80)- ابن رشيق، الأنموذج، ص399.
(81)- المصدر نفسه، ص 335.
(82)- ينظر: المصدر نفسه، ص209.
(83)- ينظر: المصدر نفسه، ص55.
(84)- المصدر نفسه، ص335.
(85)- المصدر نفسه، ص265.
(86)- المصدر نفسه، ص80.
(87)- المصدر نفسه، ص91.
(88)- المصدر نفسه، ص190.
(89)- المصدر نفسه، ص100.
(90)- المصدر نفسه، ص119.
(91)- ينظر: المصدر نفسه، ص115.
(92)- المصدر نفسه، ص57.
(93)- المصدر نفسه، ص73.
(94)- ينظر: المصدر نفسه، ص126.
(95)- ينظر: علي بن محمد، ابن بسام الأندلسي، ص233.
(96)- ابن رشيق، الأنموذج، ص188.
(97)- المصدر نفسه، ص312.
(98)- ينظر: المصدر نفسه، ص316، 146، 181، 352 على الترتيب.
(99)- المصدر نفسه، ص45-46.
(100)- المصدر نفسه، ص111.
(101)- ينظر: المصدر نفسه، ص29 من مقدمة التحقيق.
(102)- ينظر: المصدر نفسه، ص431.
(103)- ينظر: المصدر نفسه، ص410.

Edited with the trial version of Foxit Advanced PDF Editor
To remove this notice, visit: www.foxitsoftware.com/shopping

(104)- المصدر نفسه، ص311.
(105)- المصدر نفسه، ص83.
(106)- ينظر: علي بن محمد، ابن بسام الأندلسي، ص 230.
(107)- ابن رشيق، الأنموذج، ص360.
(108)- المصدر نفسه، ص314.
(109)- المصدر نفسه، ص141.
(110)- المصدر نفسه، ص380.
(111) - المصدر نفسه، ص112.
(112)- عبد الرؤوف مخلوف، ابن رشيق القيرواني، ص56.
(113)- ينظر: ابن رشيق، الأنموذج، ص104.
(114)- ينظر: المصدر نفسه، ص159.
(115)- ينظر: المصدر نفسه، ص34 من مقدمة التحقيق.
(116)- المصدر نفسه، ص268.
(117)- المصدر نفسه، ص221
(118)- المصدر نفسه، ص210.
(119)- المصدر نفسه، ص168.
(120)- اشتق الخط المغربي من الخط الكوفي القديم، وأقدم ما وجد منه يرجع إلى ما قبل سنة 300هـ، وكان يسمى الخط القيرواني نسبة إلى القيروان، (يحي وهيب الجبوري، الخط والكتابة في الحضارة العربية، دار الغرب الإسلامي. ص142.
(121)- ينظر: ابن رشيق، الأنموذج، ص123.
(122)- ينظر: عبد الرؤوف مخلوف، ابن رشيق القيرواني، ص73.
(123)- ابن رشيق، الأنموذج، ص340.
(124)- المصدر نفسه، ص343.
(125)- المصدر نفسه، ص372.
(126)- عبد الرحمن ياغي، حياة القيروان وموقف ابن رشيق منها، ص359.
(127)- ابن رشيق، الأنموذج، ص331.
(128)- ينظر: عبد الرحمن ياغي، حياة القيروان، ص371- 372.
(129)- ابن رشيق، الأنموذج، ص221.
(130)- المصدر نفسه، ص162.
(131)- المصدر نفسه، ص120.
(132)- ينظر: عبد الرحمن ياغي، حياة القيروان، ص372.
(133)- ابن رشيق، الأنموذج، ص380.
(134)- عبد الرحمن ياغي، حياة القيروان، ص373.
(135)- عبد الرحمن بن محمد الجيلالي، تاريخ الجزائر العام، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر،ط7،ص272.
(136)-(137)- ينظر: عبد الله شريط، تاريخ الثقافة والأدب في المشرق والمغرب، ص143.